المحاضرة رقم 02.

التنوع اللغوي في الجزائر

1-توطئة:

المجتمع الجزائري له مقومات خاصة تميزه عن غيره من المجتمعات العربية، ويعود هذا التميز إلى عوامل استعمارية، وتحولات تاريخية ألبسته جملة من المقومات الحضارية أساسها التنوع اللغوي، والثقافي. ولا شك في أن هذا التنوع أفرزته الظروف التاريخية عبر قرون متلاحقة. وكان ظلم الاحتلال الفرنسي البغيض أحد أهم الأسباب التي أسهمت في تشكيل التركيبة الاجتماعية، والثقافية، والحضارية للمجتمع في حقبة امتدت مائة واثنين وثلاثين سنة، لاقى فيها الشعب الجزائري أفظع أنواع العذاب، والتنكيل، ومحاولات سلخه عن انتمائه الحضاري، ومقوماته الشخصية.

وفي تحولات مظاهر الحياة لهذا الشعب من فترة إلى أخرى، كان يعمل المحتل بكامل قواه من أجل محو تلك الشخصية، وتذويبها في إطار مرجعي مغاير من خلال دمجه في تلقي التعليم الفرنسي، وفتح الآفاق أمام النخب الفرانكفونية التي يصنعها لتبوأ مكانات مغرية في المجتمع الفرنسي. وفي مقابل هذا الإغراء، عمل على تضييق الخناق على كل من يسعى إلى الانفلات من هيمنة الثقافة الفرنسية، بالدعوة إلى تعلم العربية، وحفظ القرآن. ولعل قوة الشخصية لدى الإنسان الجزائري عموما هي التي كانت عائقا أمام تيار الاستلاب، و«إذا أمعنا النظر في مدلول الهوية الفردية أو الشخصية وجدنا أنها تعني في واقع الأمر إحساس الشخص بفردانيته، أي: إحساسه بأنه هو نفسه وليس غيره-(يبلغ هذا الإحساس ذروته في مرحلة المراهقة)-، وأنه

يبقى على ما هو عليه في الزمان ليشبه نفسه، ويشعر بوجوده المختلف عن غيره»[1]. وعلى هذا، سار الوجود الجزائري عبر أزمنة سحيقة وهو ينافح عن وجوده، ويعض على فردانيته من خلال الوعي بالآخر.

2-التنوع اللغوي، وإشكالات الهجنة اللغوية:

الشرط الحضاري لأي أمة يقوم أساسا على الوعي بالذات، والإيمان بفكرة الوجود المختلف عن الآخر. وإذا كنا كشعب أوجدته الأقدار على خط الصراع المتواصل مع الكيان الفرنسي المحتل. فإن رد الفعل في المقابل كان محاولة للانفلات من قبضة التغريب، والتهجين، وصناعة مجتمع ممسوخ. ولذلك لا يمكن تبين معالم الهجنة اللغوية في الجزائر، وهيمنة التنوع اللغوي من جهة أخرى إلا بتبين ملامح الشرط التاريخي؛ «فمعرفة التاريخ على حقيقته من شأنها أن ترفع اللبس حول الأحكام الموجهة إلى الذات، وهو شرط أساسي لا بد منه إذا أردنا أن نسير بدون عقدة عظمة أو نقص على طريقة صناعة مستقبلنا كشعب له هويته ويرتبط بماض فيه ما فيه من مظاهر القوة ومظاهر الضعف التي خضنا بها قدرنا على مدى العصور في هذا الوجود»[2].

لقد عزم الاحتلال الفرنسي في سنة 1848 إلى جعل الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا. ومن خلال هذا السلوك عملت على محاولة التدمير الممنهج عبر سنوات متلاحقة، ولم يتوقف الصراع الجزائري الفرنسي على مدار كل سنوات الاحتلال، ويعود سبب ذلك إلى مناعة الشخصية الجزائري غير القابلة للانحلال والذوبان، وقد ثبت هذا الأمر على مدار قرون طويلة، من الاحتلال الفينيقي، إلى الإسباني. وإلى حد ما تحققت بعض أحلام فرنسا في صناعة الهجنة اللغوية، وتشجيع اللهجات المحلية كبديل عن اللغة العربية، و«كان من الطبيعي ان ينال هذا الصراع من مقومات الشخصية الجزائرية على المدى البعيد، خصوصا بعد أن أجهدها صراعها ضد المد

[1]) محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. ص95.
[2]) عشراتي سليمان: الشخصية الجزائرية. الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية. ديوان المطبوعات الجامعية. ص9.

الاستعماري المتواصل الذي أراد أن يجتث أصولها ويمحو ملامحها، فوضع التشريعات والنظم التي تتلاءم مع سياسته وتمس الحياة الاجتماعية من جميع جوانبها، هادفا من وراء ذلك إلى خلق جيل جديد، ينشئه هو بنفسه على أن يتحلل من كل ما يربطه بوطنه وبماضيه»[1]. وعلى الرغم من جهود فرنسا في محاولة إغراء أبناء المجتمع الجزائري في ضرورة تعلم الفرنسية، لأنها لغة الحضارة والتقدم، وجهود مفكريها وكثير من أدبائها في تكريس سياسة الإغراء؛ إلا أن «من الأسباب التي جعلت الأهالي يلازمون موقف الحذر من التعليم الفرنسي، رغم ندرته والاقتصار على الصفوة المختارة من أبناء الطبقة العليا، من بين تلك الأسباب، صمود الثقافة العربية نسبيا في بداية الاحتلال...على أن السبب الرئيسي هو أن الجزائريين وجدوا أنفسهم مرغمين على الرضوخ للأمر الواقع، عندما عمدت السلطة الفرنسية أثناء حرب الاحتلال، إلى اختطاف الشبان الصغار، أبناء زعماء المقاومين المعروفين، وإرسالهم إلى فرنسا للانخراط في المدارس الثانوية العسكرية»[2].

ولم تقتصر السياسة القذرة للمحتل الفرنسي في محاولة تعليم اللغة الفرنسية لأبناء الجزائر، وإنما عمدت إلى حيل، وأنماط أخرى من المحو، والتشويه، وذلك عندما وظف رجال الكنيسة في ذلك، ومعروف أن مثل هؤلاء الرجال يستغلون تردّي الأوضاع الاجتماعية، ثم يتسللون من هذا الباب؛ ذلك أنه « في ع1867 و1868، وقع تعميد وتنصير الألوف من الأطفال الجزائريين اليتامى، بالغصب والقوة، وكان الكاردينال لا فيدري (Lavigerie) قد جمعهم بعد وقوع المجاعة الكبرى التي سببتها القوانين الجائرة المتعلقة بملكية الأراضي، والتفريط المتعمد من طرف السلطات الفرنسية، وأنانية المعمرين المجرمين، مما أدى إلى هلاك ما يزيد عن500.000 من الأهالي»[3].

---

[1]) محمد السويدي: مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري. ص36.
[2]) مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع. ص416.
[3]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

ومن خلال التتبع التاريخي، يصبح لزاما علينا في هذا السياق مراعاة التسلسل التاريخي في محاولة فرنسا صناعة الهجنة اللغوية، والثقافية، وإنتاج أجيال متلاحقة من الجزائريين ينكرون أصلهم، وبذلك تخبو الممانعة، ويخبو فعل المقاومة. وعادة ما يكون لأي احتلال جداول، وخطط، واستراتيجيات تخضع لرؤى خبرائه، ومفكريه، وصناع الحروب. «ومراحل التأثر باللغة الفرنسية ثلاث على الأقل، من1830 إلى 1880، ولا نكاد نجد فيها تأثيرا في ميدان الكتابة، لا في المقالة ولا في الرواية ولا في غيرها. وخلالها وقع انفصام بين الشعبين وإهمال للمدرسة والتعليم»[1]. فقد كان الانخراط في مبادئ الحملة الاستعمارية محتشما، خاصة إذا علمنا أن جل الشعب الجزائري غداة الاحتلال كان يحسن القراءة والكتابة. وقد أقر بذلك (فلهلم شيمبر (Wilhelm Schimper 1804-1878) الرحالة الألماني عالم النبات عندما زار الجزائر سنة 1831. وعندما ألف كتابا عنوانه: رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر في سنتي 1831–1832. وقد قال فيه: «لقد بحثتُ قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين وجدتُ ذلك في بلدان جنوب أوربا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب. ومن الإنصاف أن نقول إن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية»[2].

ويأتي القرن العشرون، ويمتد فيه المشروع الفرنسي، والنتائج التي ترتبت عنه، وهو المرحلة الثانية من محاولات التغريب، و«تمتد من 1880 إلى 1920، وقد شهدت ظهور كتاب المقالات والعرائض والكتيبات وحتى بعض الكتب والدراسات، ولكن لم تعرف الإنتاج الأدبي أو الإبداعي باللغة الفرنسية»[3]. وتلي هذه الحقبة «المرحلة الثالثة من 1920 إلى 1950، وخلالها انتشر التعليم الفرنسي والعربي، وأصبح غير مقتصر على أبناء فئة معينة في غالب الأحيان. وأدى التطور

[1]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج. ص8. ص173.
[2]) أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان. (1830-1855). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1975. ص13.
[3]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج. ص8. ص173-174.

السياسي إلى ظهور الأحزاب والجمعيات، وظهور الصحف الناطقة باسم هذا الاتجاه أو ذاك»[1]. وفي خضم النشاطات الحزبية، والعمل السياسي الجزائري الذي تبنته نخب الفكر والإصلاح، ومختلف الاتجاهات اليسارية، والثورية التي تباينت شعاراتها السياسية حينا، واتفقت حينا آخر. ومن بين الأحزاب ذات الصيت العالي جمعية العلماء المسلمين، وحزب نجم شمال إفريقيا، ثم حزب الشعب، وأحباب البيان والحرية. وعلى الرغم من الهجنة اللغوية التي تظهر جليا في الكتابة باللغتين، العربية والفرنسية، إلا أن مقومات الهوية الجزائرية بقيت صامدة، محافظة على رسوخها، وصارت الأمة على ما هي عليه بعد الاستقلال؛ «فقد احتفظت بلغتها المكتوبة (الفصحى)، وبلغاتها الدارجة التي لا تعتبر مجرد لهجات، بل كثيرا ما تستعمل في نوع من الثنائية اللغوية المفيدة في أغراض التعامل والتفاهم. إن هذه اللغة الفصحى كانت تدرس في كافة جهات القطر، بل حتى في المناطق التي لا تستعمل فيها العربية الدارجة ويتخاطب سكانها بالأمازيغية»[2].

[1]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج. ص8. ص174.
[2]) مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع. ص416-417.